سؤال الأخلاق والدين

هل الإيمان بالله ضروري للأخلاق الحسنة؟

الجدل محتدم منذ سنوات بين التيارات الدينية، الإسلامي خاصة، وبين التيارات العلمانية واللادينية. وتهم التشكيك ببطلان أو فساد المرجعية الأخلاقية يتم استخدامها بمجانية. قراءة لمعقولية وخطورة هذا الأسلوب، وأخلاقيته أساسا.

دراسات اجتماعية – الردة الأصولية

Peace House بيت السلام

علاء الخطيب

2021/05/24

المحتويات

1 تمهيد وتعريفات 6
2 أهمية سؤال علاقة الدين والأخلاق..... 6
3 مشكلة السؤال..... 13
3.1 على المستوى السياسي..... 13
3.2 على المستوى الاجتماعي والمواطنة 14
3.3 على المستوى العلمي والبحثي..... 14
4 سؤال الإيمان والأخلاق في الدول العربية..... 15
5 الإسلام والأخلاق 15
5.1 علم الأخلاق والإسلام..... 16
5.2 تعريف الأخلاق عند علماء المسلمين..... 16
6 سؤال المرجعية الأخلاقية..... 18
6.1 هل الدين هو المرجعية الأخلاقية الوحيدة؟ 18
6.2 هل اشترط علماء المسلمين الدين أو الإيمان للأخلاق؟..... 19
6.3 مؤشرات تتعلق بالأخلاق..... 19
6.4 الجينات والأعصاب والسلوك البشري 22
6.5 الأسئلة الأخلاقية الكبرى في العصر الحديث 22
7 خطورة احتكار المرجعية الأخلاقية من قبل الدين..... 24
8 هل إنكار وجود أو صلاحية المرجعية الأخلاقية عند الآخر سلوك أخلاقي؟..... 25
9 اتهامات التيار اللاديني للأديان بهدم الأخلاق أو الإساءة إليها هو أيضا سلوك لا أخلاقي..... 25
10 نحو ميثاق عالمي للأخلاق 25
11 خاتمة..... 26

سؤال الأخلاق والدين

هل الإيمان بالله ضروري للأخلاق الحسنة؟

علاء الخطيب

2021/05/24

مدخل

أجرى مركز بيو للأبحاث الأمريكي في العام 2019 استطلاعا للرأي شمل 34 دولة حول العالم، وكان محور الاستطلاع سؤال: "هل تعتقد أن الإيمان بالله ضروري ليكون الإنسان أخلاقيا وذو قيم جيدة؟". بنتيجة الاستطلاع أجاب 45 بالمئة من المُستَطْلعة أراءهم: نعم، الإيمان بالله ضروري للتحلي بالأخلاق الحسنة، بينما أجاب 51 بالمئة: لا، ليس ضروريا[1].

سنتعرض لهذا الاستطلاع ببعض التفاصيل لاحقا، لكن هذه النتيجة العامة -والتي تخفي الكثير من الاختلافات والتباينات حسب الدولة، وحسب العمر والمستوى التعليمي والتوجه السياسي- تبين أهمية السؤال وانتشاره أيضا كأحد الأسئلة الأساسية للناس حول العالم وأيضا للدارسين والمتخصصين.

ربما سمع كثير منا، خلال العقدين الماضيين، وضمن نقاشات وجدالات وأحيانا معارك منصات الإعلام والتواصل الاجتماعي، سؤال: "ما هي مرجعيتك الأخلاقية؟"، الذي يُتبعه السائل المتدين في كثير من الحالات بالاستشهاد بعبارات متداولة منسوبة لبعض مشاهير الإلحاد واللادينية حول أن الرؤية "اللادينية العلمانية الحديثة" للإنسان بوعيه وعقله وأخلاقه هي نظرتها "لحثالة كيميائية جامدة"؛ وبالتالي يبني عليها السائل استنتاجات ضخمة حول افتقار شريحة اللادينيين والملحدين والعلمانيين والليبراليين للأخلاق الحسنة والفضائل الإنسانية.

على الجانب المقابل، نجد أيضا بعضا من اللادينيين والملحدين والعلمانيين والليبراليين يرفعون الإدانات ضد الأديان لما دمرته من أخلاق وقيم إنسانية بسبب ما تحتويه نصوصها المؤصلة من إقصاء للآخر، واحتكار للحقيقة وللخلاص، ونظرة فوقية للمرأة، وتبرير للعنف تحت اسم الدين.

تتجلى أهمية هذه الجدالات على أرض الواقع في استخدامها المباشر أو غير المباشر من قبل العديد من التيارات والأيدولوجيات، الفكرية والدينية والسياسية، التي تحمل طابعا تمييزيا متعصبا ضد الآخر. ولعل الكثيرين رؤوا أو لاحظوا ضمن الخطابات المتداولة بين هذه التيارات الكثير من الإدانات الأخلاقية للآخر المستهدف، سواء كان الآخر مختلف دينيا أو عرقيا أو قوميا أو فكريا أو طبقيا أو حتى جندريا.

فبالإضافة لأهمية الموضوع أكاديميا ضمن مباحث علم الأخلاق وعلوم الاجتماع والنفس والدين، هو ذو دور أساسي في التغيرات الضخمة التي تعصف بعالمنا المعاصر، وخاصة الارتدادات الأصولية المتعصبة الرافضة أو المعادية للآخر.

أحاول من خلال هذه الورقة البحث في السؤال الأساسي المثار من قبل كل الأطراف حول ما يُسمى المرجعية الأخلاقية، وهل الأجوبة المطروحة في حرمان الآخرين من هذه المرجعية، أو التنديد بها كليا أو جزئيا مبرر.

ومن المهم التنويه أننا بهذا النقاش لن نتطرق لتفاصيل التعريفات والخلافات المثارة ضمن مبحث علم وفلسفة الأخلاق، وما يستتبعها من مباحث علمية وفلسفية. كذلك فإن الدين قيد النقاش هنا يختص بالأديان الابراهيمية عموما: اليهودية والمسيحية والإسلام؛ والتركيز على الإسلام كمثال متشابك بالمعايير ذات المنحى الأخلاقي مع الدينين الآخرين. ناهيك عن حقيقة أن السؤال أكثر إشكالية مع الإسلام، ليس لأنه دين فقط، بل لأن حاملي شعاراته إعلاميا وسياسيا يطرحونه كنظام شامل للدولة والمجتمع وبالتالي كبديل وليس كمكمّل لما هو قائم.

منتهى التبيين
بين
الأخلاق والدين

علاء الخطيب

1 تمهيد وتعريفات

مبحث نظريات وعلم الأخلاق وفلسفتها واسع ومتفرع وساحة جهود متراكمة تاريخيا، ومتواصلة لحد الآن، بسبب أهميتها الكبرى على المستوى الفردي والسلوكي، وعلى مستوى صناعة القرار في المجموعات البشرية دولا ومجتمعات وشركات ومؤسسات. لكن كما ذكرت سابقا فهذا ليس مبحثنا الآن.

يمكن الزعم بأن أبسط تعريف منتشر للأخلاق سواء كانت بمعنى Morality أو بمعنى الفضائل Ethics هو أن الأخلاق معايير تميّز بين الصح والخطأ، بين الجيد والسيء، بين الخير والشر[2]. لكن ضمن التعريفات العلمية والفلسفية فهذه المصطلحات بحاجة لتوسع كبير حول التعريفات والفروق فيما بينها[3]. لذلك سنكتفي مبدئيا بالمعنى الأقرب للانتشار شعبيا، وحسب القواميس سواء العربية أو الإنجليزية.

2 أهمية سؤال علاقة الدين والأخلاق

للسؤال أهميته العلمية والبحثية للمتخصصين في حقل علم الأخلاق. لكن له أهمية كبيرة أيضا في انتشار التمييز بين الناس على أساس ديني أو اعتقادي أو طائفي، وأيضا في تفاعل الناس عموما مع العلمانية وقيمها الحديثة.

في الاستطلاع المذكور سابقا، استطلاع مركز بيو للأبحاث، خرجت عدة نتائج ملفتة للنظر، وبنفس الوقت تؤكد ضرورة تحليل وتقصي هذه العلاقة على المستوى الشعبي العام وعند غير المتخصصين.

كان السؤال المحوري للاستطلاع هو "هل الإيمان بالله ضروري ليكون الإنسان أخلاقيا وذا قيم حسنة؟". شمل الاستطلاع 34 دولة من القارات الخمسة، وتم إجراؤه في العام 2019، ونشر النتائج في العام 2020.

كما هو متوقع فإن نسبة من يرون أن الإيمان بالله ضروري للأخلاق الجيدة كانت عالية نسبيا في الدول الأكثر تدينا ومحافظة بغض النظر عن الأديان المنتشرة بها.

فنلاحظ وفق الشكل 1 أن من أجابوا بنعم على السؤال تتراوح ما بين أقل نسبة في دول أوروبا الغربية حيث الوسطي لإجابة "نعم" كانت 22 بالمئة، لترتفع إلى 33 بالمئة في أوروبا الشرقية، وإلى 44 بالمئة في الولايات المتحدة الأمريكية. ثم تتجاوز 50 بالمئة في غالبية دول آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية، لتصل إلى أعلى نسبة في إندونيسيا والفليبين 96 بالمئة، الأولى ذات غالبية مسلمة (88 بالمئة) والثانية ذات غالبية مسيحية (90 بالمئة).

لبنان وتونس وتركيا أيضا أجابت بنسب كبيرة عن ضرورة الإيمان بالله لوجود الأخلاق الحسنة (أكثر من 70 بالمئة). وفي إسرائيل نسبة الإجابة بنعم بلغت 48 بالمئة. وكلها أعلى من المعدل العالمي الذي كان 45 بالمئة أجابوا بنعم على السؤال.

النتيجة المهمة لهذا الجدول هي أن نسبة الإجابة بنعم تتعلق بنسبة المتدينين في الدولة وليس أي دين هو الأكثر انتشارا. فالدول التي أجابت بنعم وبنسب عالية تتنوع الغالبية الدينية بها ما بين الإسلام والمسيحية واليهودية والهندوسية.

لكن أيضا لا بد من الإشارة أيضا إلى أن لا دولة ذات غالبية مسلمة انخفضت بها نسبة من يجيبون بنعم عن 70 بالمئة. ولعل هذا يتعلق بالعوامل الأخرى المؤثرة على هذا السؤال.

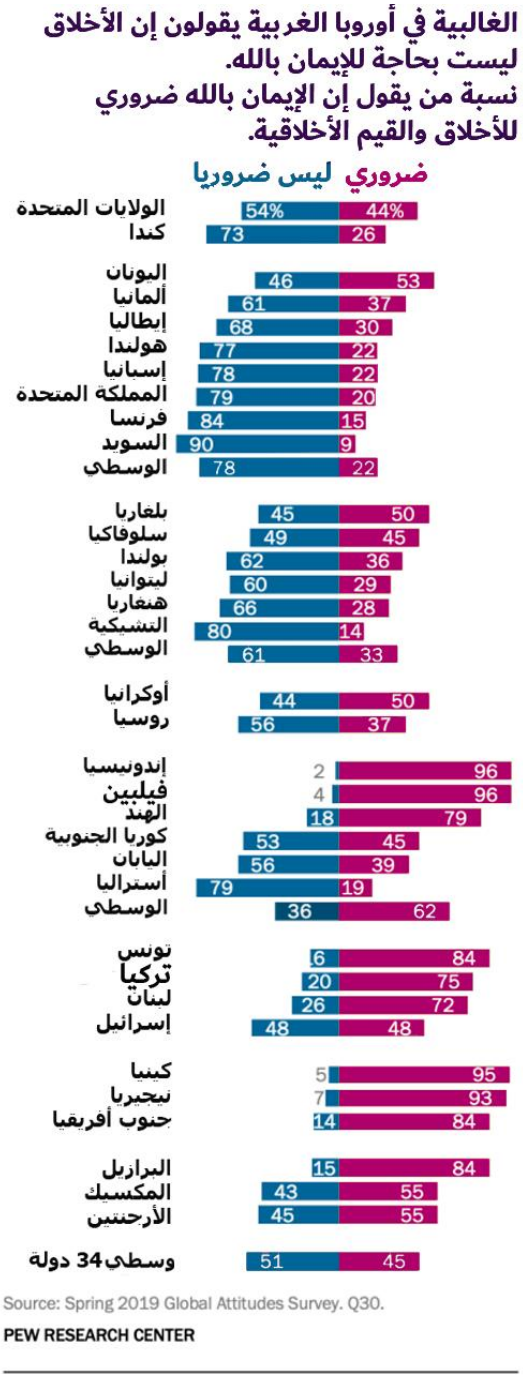

الشكل 1، الإجابة على سؤال هل الإيمان بالله ضروري للأخلاق الجيدة. اللون الخمري يعبر عن النسبة المئوية لمن أجابوا "نعم"، اللون الأزرق هو النسبة المئوية لمن أجابوا "لا".

هذا الاختلاف في الإجابة لا يقتصر على الاختلاف بين الدول. فعند فرز الإجابات وفق الدخل المادي للعينة المستهدفة بالاستطلاع، نجد اختلافا واضحا في بعض الدول بين الأفراد حسب الدخل.

بشكل عام فالفئات الأعلى دخلا أقل ميلا للإجابة بنعم على السؤال. وحسبما يبين الشكل 2 فإن نسبة المجيبين بنعم في كل الدول أعلى عند شريحة الأفراد ذات الدخل المنخفض.

والملاحظ أيضا أن أكبر فرق بين شريحتي الدخل العالي والمنخفض موجود في الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل والأرجنتين.

فئات الدخل الأعلى أقل احتمالا أن ترى أن الإيمان بالله ضروري لحسن الأخلاق

نسبة من يقولون إن الإيمان بالله ضروري للأخلاق والقيم الحسنة.

	دخل منخفض	دخل عالي	الفارق بين الفئتين
	%	%	
الولايات المتحدة	56	32	-24
إسرائيل	64	42	-22
الأرجنتين	68	48	-20
بلغاريا	58	39	-19
هنغاريا	37	18	-19
لبنان	79	65	-14
بولندا	43	29	-14
كندا	33	20	-13
سلوفاكيا	56	44	-12
ألمانيا	43	31	-12
إسبانيا	28	16	-12
أستراليا	25	13	-12
المكسيك	60	48	-12
تونس	91	80	-11
روسيا	43	32	-11
إيطاليا	35	24	-11
هولندا	27	16	-11
المملكة المتحدة	25	14	-11
اليونان	59	49	-10
أوكرانيا	57	47	-10
السويد	14	4	-10
تركيا	80	71	-9
كوريا الجنوبية	49	40	-9
ليتوانيا	34	25	-9
التشيكية	22	13	-9
فرنسا	19	10	-9

Note: Only statistically significant differences shown. Respondents with a household income below the approximate country median are considered lower income. Those with an income at or above the approximate country median are considered higher income.
Source: Spring 2019 Global Attitudes Survey. Q30.

PEW RESEARCH CENTER

الشكل 2، السؤال "هل الإيمان بالله ضروري للأخلاق الحسنة". نسب من أجابوا نعم عند الأفراد ذووي الدخل المنخفض والدخل العالي.

يتضح أيضا من خلال الاستطلاع أن الاعتقاد بأن الإيمان بالله ضروري للأخلاق الجيدة يترافق مع التوجه السياسي، فالنسبة تزداد بين اليمين السياسي وتتناقص بين التيار اليساري السياسي كما يوضح الشكل 3. نلاحظ هنا الفارق الكبير بحجم الفجوة بين اليمين واليسار بين الولايات المتحدة الأمريكية

ودول أوروبا الغربية وجنوب كوريا. ولعل هذا يوضح أكثر الفرق بين طبيعة المجتمعين رغم أنهما يُصنفان ضمن الدول الغربية.

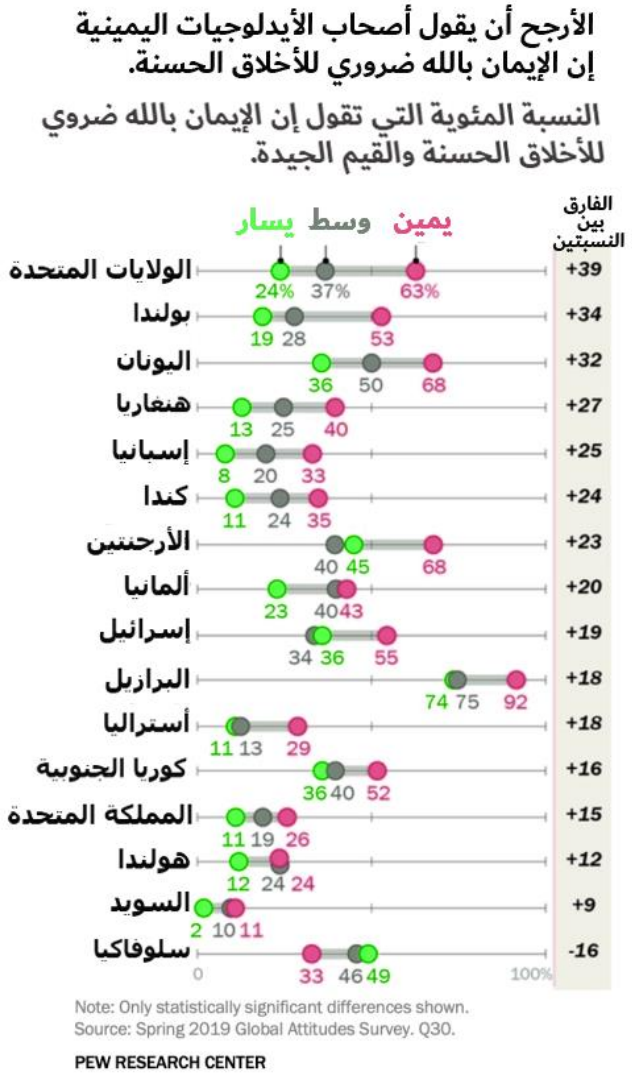

الشكل 3، علاقة الاعتقاد بأن الإيمان بالله ضروري للأخلاق الحسنة بالأيدلوجية السياسية ما بين اليمين واليسار.

كذلك فإن الاختلافات في التعامل مع هذه الإجابة تتغير حسب الشريحة العمرية، حيث تزداد نسبة من لا يرون أن العلاقة بين الإيمان بالله والأخلاق الحسنة علاقة شرطية وحتمية حسبما نرى في الشكل 4. نلاحظ أن الفجوة بين الشرائح العمرية تتناقص في نوعين من الدول: الأولى هي الدول التي أصلا لا يوجد بها نسبة عالية ممن يرون حتمية العلاقة بين الإيمان بالله والأخلاق الحسنة؛ والثانية هي الدول الأكثر تدينا والأكثر ميلا للربط بين هاذين العاملين.

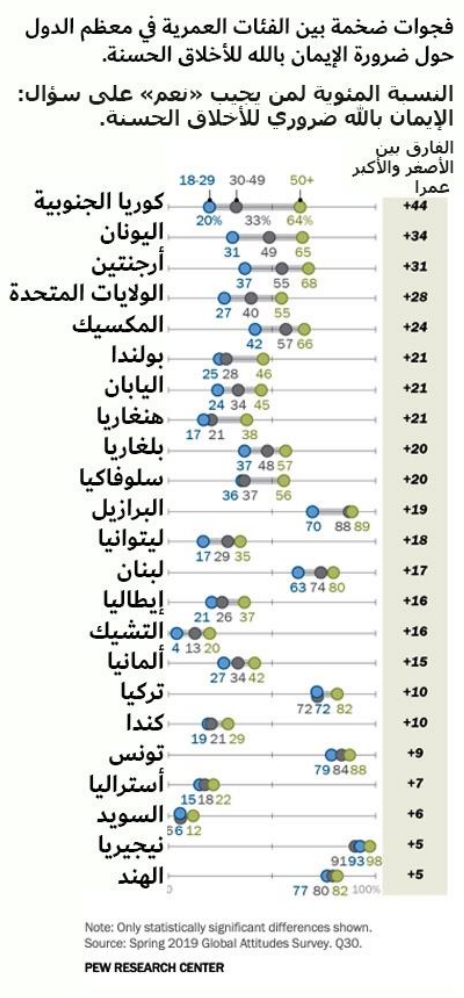

الشكل 4، الفارق بالإجابة على سؤال هل الإيمان بالله ضروري للأخلاق الحسنة، والفجوة بين الشرائح العمرية.

العلاقة بين الإجابة على هذا السؤال تتضح أكثر حسب المستوى التعليمي، حيث نلاحظ أن الشرائح ذات التعليم الأعلى أكثر ميلا بشكل واضح للفصل بين الإيمان بالله والأخلاق، حتى في الدول الأكثر تدينا حسبما يوضح الشكل 5.

الفئات ذات التعليم الأعلى أقل ميلا لرؤية أن الإيمان بالله ضروري للأخلاق الحسنة.

النسبة المئوية لمن يجيب «نعم» على سؤال: الإيمان بالله ضروري للأخلاق الحسنة.

	أقل تعليما	أكثر تعليما	الفارق بين الشريحتين
	%	%	
الأرجنتين	59	26	-33
مكسيك	67	36	-31
اليونان	59	32	-27
تركيا	79	56	-23
لبنان	79	60	-19
تونس	90	72	-18
الولايات المتحدة	52	34	-18
إسرائيل	56	39	-17
هنغاريا	32	15	-17
البرازيل	91	77	-14
ألمانيا	41	27	-14
بولندا	40	26	-14
إيطاليا	32	18	-14
أوكرانيا	52	39	-13
سلوفاكيا	48	35	-13
ليتوانيا	33	20	-13
هولندا	27	14	-13
روسيا	45	33	-12
كندا	33	21	-12
بلغاريا	53	43	-10
كوريا الجنوبية	49	41	-8
المملكة المتحدة	22	14	-8
إسبانيا	24	17	-7
فرنسا	17	10	-7

Note: Only statistically significant differences shown. For the purpose of comparing educational groups across countries, education levels are standardized based on the UN's International Standard Classification of Education (ISCED). The "less education" category is below secondary education and the "more education" category is secondary or above in Brazil, India, Indonesia, Kenya, Lebanon, Mexico, Nigeria, Philippines, South Africa, Tunisia and Ukraine. The "less education" category is secondary education or below and the "more education" category is postsecondary or above in Argentina, Australia, Bulgaria, Canada, Czech Republic, France, Germany, Greece, Hungary, Israel, Italy, Japan, Lithuania

الشكل 5، نسبة من يوافقون على أن الإيمان بالله ضروري للأخلاق الحسنة وفق المستوى التعليمي.

من المهم الإشارة إلى أن مركز بيو أجرى نفس الاستطلاع تقريبا بسنوات سابقة، 2002 و2007، وقد لوحظ عموما تراجع نسبة من يجيبون بنعم على السؤال، لكن في الدول التي كانت مشمولة

بالاستطلاعين، لذلك لا يمكن توسيع النتيجة التاريخية على كل الدول المشاركة في الاستطلاع الأخير اعتمادا على العينة التي تمت مقارنتها زمنيا.

إذا يمكننا القول إن الميل العام للناس هو ربط الأخلاق الحسنة بالإيمان بالله، أو بإله عموما. مع ملاحظة أن السؤال كان عن الإيمان بالله وليس التديّن أو ممارسة الطقوس الدينية.

سنجد تأكيدا لهذا التمييز، أي بين الإيمان بإله وبين التديّن طقوسيا، في دراسة استطلاعية أخرى في جامعة كنتاكي في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي بعد عدة تجارب مع عينات متنوعة من الأمريكيين توصلت إلى ضعف الثقة عموما بالملحدين كأفراد من الناحية الأخلاقية مقارنة بالثقة في المؤمنين بإله، بغض النظر عن الدين[4].

3 مشكلة السؤال

هذا الربط التلقائي لدى الكثيرين بين الإيمان بالله والأخلاق الحسنة منتشر بالمجتمعات المتدينة عموما، مثل المجتمعات العربية والإسلامية والهندوسية والبوذية والمسيحية خارج المنظومة الغربية واليهودية. وبالتالي فيمكن الزعم بثقة أن هذا الربط هو آلية ذهنية متوارثة مع توارث الأديان والعادات والتقاليد، تمر عبر الأجيال دون أن يتم وضعها على طاولة الاختبار عند عموم الناس؛ خاصةً وأن السؤال نسبيا حديث، وبدء يأخذ أبعادا واسعة خلال القرن الماضي. فانتشار التدين والإيمان تاريخيا في المجتمعات البشرية، وبكثير من الحالات الانسجام بين أفراد المجتمع في تكوين أكثريات دينية، لم يضعا هذا السؤال أمام الناس في حياتهم العادية.

لكن منذ منتصف القرن الماضي، ومع انفجار الثورة العلمية والتقنية، ثم ثورة الاتصالات والتواصل العالمي، ومع ترسخ نظام عالمي اقتصادي يحتوي القرية الأرضية الكبيرة، وظهور الصدامات الثقافية بين الشعوب والمجتمعات وضمنها أدى إلى دفع هذ السؤال إلى المقدمة[5].

3.1 على المستوى السياسي

لا بد للسياسي والقوى السياسية في الدول ذات الغالبية المتدينة والمحافظة أن تبدي تقربا أو التزاما واضحا بالدين السائد. ليس فقط لكسب الود الشعبي من باب الانتساب للمجموعة الدينية فقط، بل أيضا لبرهان أخلاقية يريدها الجمهور في السياسي.

ونرى ذلك مثلا في الولايات المتحدة الأمريكية، فالقاعدة الذهبية لأي سياسي يريد الوصول لمناصب عليا هي إبراز إيمانه بالله على الأقل، حتى لو لم يكن معروفا بالتزامه الديني وطقوس الكنيسة. بينما لا نرى هذا الاستدعاء للدين والإيمان في دول أوروبا الغربية. وجميع هذه الدول ديمقراطية وعلمانية.

أما في الدول الشمولية، فإظهار السلطة السياسية لإيمانها بالله والالتزام ببعض الطقوس الدينية هو من أصول الحكم الشمولي المتوارثة تاريخيا في الحضارة الإنسانية. رغم أن بعض الديكتاتوريات ظهرت تاريخيا بمظهر الملحد أو اللاديني، إلا أن ذلك حصل بمرحلة تاريخية كان الديكتاتورية أكثر تعسفا، والسؤال لم يصعد للسطح بهذا الشكل الواضح، مثلما حصل في الصين والاتحاد السوفييتي السابق.

3.2 على المستوى الاجتماعي والمواطنة

إن ربط الأخلاق بالإيمان بالله يستدعي في غالبية الحالات أن تربط كل مجموعة الأخلاق الأسمى بدينها وطائفتها، وتعطي نفسها المكانة الأعلى على سلم الأخلاق مقارنة بأتباع الأديان الأخرى، وبالطبع مقارنة بمجموعات اللادينيين والملحدين.

هذا الربط يصب في ترسيخ الشقاق الطائفي والديني التمييزي بين مكونات المجتمع. فأحد أهم معايير نظرة الإنسان للآخر هي تقييمه لأخلاقية الآخر، وبالتالي تحكم على كيفية التعامل معه بالحياة اليومية كأفراد وجماعات.

3.3 على المستوى العلمي والبحثي

رغم ما حققته العلوم والتقنيات الحديثة من اكتشافات مذهلة على كافة الأصعدة، إلا أن الشك ما زال يتوسع حول ما تحققه هذه العلوم والتقنيات. ولعلنا راينا هذا بوضوح في السنة الأخيرة أثناء مواجهة وباء كورونا، وحملات التشكيك بكل ما يقوله العلماء والمتخصصون. وأيضا بالإشاعات المصاحبة للعديد من الاختراعات الجديدة، مثلما حصل يوم بدء انتشار الموبايل وما رافقه من إشاعات حول تدمير الصحة الإنسانية، وهذا ما يحصل الآن مع بدء التأسيس لنشر شبكة جي5 في اتصالات الموبايلات.

كذلك فكلنا يذكر الخوف الذي سيطر على الكثيرين من أبحاث الاستنساخ، والأبحاث الجينية، وأبحاث علم الأعصاب وربطها بالتكنولوجيا الحديثة.

هذه المخاوف والشكوك كان لها أسباب عديدة، منها بطء عملية التكيف عموما عند البشر مع التغيرات الكبرى في أساليب حياتهم، وضعف الثقة بالطبقات السياسية الحاكمة، والخوف من طمع الشركات الكبرى الرأسمالية؛ وبالإضافة لذلك ضعف الثقة بالعلماء والمتخصصين أيضا.

فمن المعروف إحصائيا أن نسبة اللادينية والإلحاد أعلى بين العلماء وأصحاب الدراسات الأعلى مقارنة ببقية الناس، وهذا أضاف سببا لضعف الثقة بالمعايير الأخلاقية للعلماء والعلم الحديث.

4 سؤال الإيمان والأخلاق في الدول العربية

منذ بضعة عقود، ورغم صعود التيار الإسلامي السياسي، والذي سُميّ الصحوة الإسلامية منذ سبعينات القرن الماضي؛ ظهر أيضا تيارات مقابلة متنوعة على طيف يمتد ما بين العلمانية المؤمنة التي ترى بأن الدين والإيمان أمر شخصي لا علاقة له بالدولة والسياسة، مرورا بطيف من الرؤى الدينية العصرانية، وانتهاء بتيارات اللادينية والإلحاد.

اتضح الاشتباك بين هذه التيارات بعد الربيع العربي، وبدء تسرب أفكار الديمقراطية وحرية الناس إلى أرض الواقع العربي. فكان الاشتباك عنيفا بين التيار الإسلامي السياسي والتيارات الأخرى، وعند وجود تمثيل واضح للمسيحية اصطفت المسيحية مع التيار الإسلامي غالبا من باب الخوف من انتشار الإلحاد، والتضامن مع الحاكم القوي الذي يجيد اللعب مع القوى الإسلامية السياسية.

لكن مع ذلك ظهرت أيضا الاشتباكات بين الإسلام والمسيحية عبر التنازع على من هو صاحب الدين الصحيح، خاصة على وسائل التواصل الاجتماعي، وعبر الفضائيات الدينية الإسلامية والمسيحية. ناهيك عن الاشتباك بين الطوائف داخل الدينين.

كان لسؤال الإيمان والأخلاق والعلاقة بينهما دور أساسي في هذه الاشتباكات. فقد اتجه التيار الديني في حربه الإعلامية ضد العلمانية والحداثة والديمقراطية إلى الطعن ليس فقط بتديّن هذه التيارات، بل اعتمد أكثر على التشكيك بمثلها الأخلاقية، فارتكز كثيرا على ربط العلمانية والديمقراطية بالدعارة الجنسية، والمثلية وسفاح القربي وغير ذلك من تهم.

كذلك ظهرت ما بين المسلمين والمسيحيين، وما بين الطوائف أيضا، جماعات تهاجم الدين أو الطائفة الأخرى أخلاقيا أيضا ضمن حركة التعصب الديني والطائفي. بل إن كثيرا مما يسمونه نقد الأديان اتجه ما بين هذه الأطراف إلى مقارنة الطرح الأخلاقي وادعاء التفوق الأخلاقي على الآخر.

في المقابل، ولأسباب عديدة أهمها الشدة والعنف الذي استخدمه الإسلاميون ضد المخالفين، ظهرت ضمن التيارات اللادينية والإلحادية العربية توجهات لمهاجمة الأسس الأخلاقية للإسلام والمسيحية، وربط كل مشاكل المجتمعات العربية بالنصوص والتراث الديني، خاصة الإسلامي. وهذا ما نلحظه في حرب ما يسمى "الشبهات" التي تتناول بشكل واسع التقييم الأخلاقي لما ورد في النصوص والتراث الديني.

لذلك، وبما أن الغالبية بهذه الدول هي من المسلمين، سنبدأ نقاش سؤال الإيمان والأخلاق مع الطرح الإسلامي خاصة، الذي يعبر بشكل غير مباشر عن قرينه الطرح المسيحي. والبداية ستكون النظر فيما قاله علماء وفقهاء المسلمون في الأخلاق وعلم الأخلاق.

5 الإسلام والأخلاق

الإسلام مثل كل الأديان أعطى الأخلاق الحسنة مكانا رئيسيا ضمن رسالته، فلا يمكن للمجتمعات البشرية تقبل دين يحض مثلا على مساوئ الأخلاق. الأدلة النصية في القرآن الكريم والسنة النبوية كثيرة جدا ومعروفة ومتداولة على المستوى الشعبي والنخبوي. فقد قرَن القرآن الكريم كثيرا ما بين الإيمان وبين العمل الصالح، وأوضح أيضا أن من أهم صفات رسول الإسلام هي أنه ذو خلق عظيم

"وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ"[6]. وقد أيد الحديث النبوي هذا المعنى يوم قرر أن أحد أهم أهداف الرسالة الإسلامية هي إتمام مكارم الأخلاق " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[7].

كذلك فقد احتل حقل الأخلاق حيزا واسعا في التراث الإسلامي الفقهي، وهذا طبيعي ومتوقع لأن الدين مهما اختلفنا على تعريفاته يتقاطع مع الأخلاق بشكل كبير. وأحد المعايير المعتبرة في تقييم العلماء في التراث الإسلامي هي المعايير الأخلاقية والتي أهمها العدالة والصدق حتى يثق الناس بالأخذ عنه والتعلم منه.

5.1 علم الأخلاق والإسلام

رغم محورية الأخلاق في المنتج الإسلامي التراثي، إلا أن علماء المسلمين وفقهائهم لم يركزوا على موضوع الأخلاق كعلم أو مبحث مستقل، حتى عند من اشتغل منهم أكثر في هذا المبحث، مثل مسكويه[8] والماوردي[9] والغزالي[10] ونصير الدين الطوسي[11].

يمكن القول إن مسكويه أبحر أكثر من غيره في تأسيس مبحث مختص بعلم أو فلسفة الأخلاق، وخاصة في كتابه " تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق". لكنه مع غيره من علماء وفقهاء مسلمين اتبعوا في هذا المبحث الفلسفة اليونانية فيما أنتجته في علم الأخلاق.

5.2 تعريف الأخلاق عند علماء المسلمين

جاء في "كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم" قوله في تعريف الخُلق: "الخُلق في اللغة العادة والطبيعة والدين والمروءة والجمع الأخلاق. وفي عرف العلماء مَلَكة تصدر بها عن النفس الأفعال بسهولة من غير تقدّم فكر وروية وتكلّف. فغير الراسخ من صفات النفس كغضب الحليم لا يكون خُلقاً"[12]

وأورد الغزالي "فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا"[13]

كتب نصر الدين الطوسي في كتابه "أخلاق ناصري" في تعريف علم الأخلاق، "هو ذلك العلم الذي يبحث في النفس الإنسانية وكيف تقدر على اكتساب الخُلق الذي يجعل جميع الأفعال والأحوال التي تصدر عنها بإرادتها جميلة ومحمودة. لذلك فإن موضوع هذا العلم هو النفس الإنسانية من جهة الأفعال الجميلة والمحمودة، أو القبيحة التي يمكن أن تصدر عنها بإرادتها."[14]

عرّف ابن قيم الجوزية الخُلُقَ على أنَّهُ: "هيئةٌ مُركَّبةٌ من علومٍ صادقةٍ وإراداتٍ زاكِيةٍ وأعمالٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ مُوافقةٍ للعدل والحكمة والمصلحة، وأقوالٍ مُطابقةٍ للحق، تصدرُ تلك الأقوالُ والأعمالُ عن تلك العلومِ والإراداتِ فتُكتسِبُ النَّفسَ بها أخلاقاً حسنة هي أزكى الأخلاق وأشرفها وأفضلها، وهذه كانت أخلاقه صلى الله عليه وسلم المقتبسة من القرآن"[15]

إذا فهناك شبه توافق بينهم على أن الخُلق هو ملكة أو صفة تنتج من غير تفكر وتحسب قبلها، فهم يرون الخُلق متأصلا بالنفس (وفق تعريفاتهم للنفس)، فإن أنتج خيرا وحسنا كان خُلقا حسنا، وإن أنتج شرا وقبحا كان خُلقا سيئاً.

ويقول مسكويه أن الناس مطبوعون على تقبل الخُلق، أي أنه مهيؤون طبيعيا لذلك، وأن تحديد اتجاه هذا الخُلق يأتي بالتأديب والتعليم والوعظ[16]. ويوافقه في ذلك الغزالي والطوسي. وهم بذلك ما زالوا ضمن مجال الفلسفة اليونانية، بعد قَرْنها بالشريعة الإسلامية والاستدلال من الإسلام على التعريف.

فالغزالي يورد في مبحث الخُلق أن النفس الإنسانية أو الباطن كما يسميه أربعة قوى هي: : **قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث**. فأن توازنت كأركان أربعة حسن الخُلق. وهذا ما ينسجم مع المنهج الأفلاطوني في تحليل الأخلاق.

ويضيف أيضا " فإذن أمهات الْأَخْلَاقِ وَأُصُولُهَا أَرْبَعَةٌ الْحِكْمَةُ وَالشَّجَاعَةُ وَالْعِفَّةُ وَالْعَدْلُ وَنَعْنِي بِالْحِكْمَةِ حَالَةً لِلنَّفْسِ بِهَا يُدْرَكُ الصَّوَابُ من الخطأ في جميع الأفعال الِاخْتِيَارِيَّةِ"[17]

وضمن مبحث مسكويه على بواعث الخُلق الحسن، يورد شرحا لأهمية السعادة في تنمية الخُلق الحسن، فيورد: " فإذا ما دام الإنسان إنسانا فلا تتم له السعادة إلا بتحصيل الحالين جميعا وليس يحصلان على التمام إلا بالأشياء النافعة في الوصول إلى الحكمة الأبدية. فالسعيد إذا من الناس يكون في إحدى مرتبتين. إما في مرتبة الأشياء الجسمانية متعلقا بأحوالها السفلى سعيدا هبا وهو مع ذلك يطالع الأمور الشريفة باحثا عنها مشتاقا إليها متحركا نحوها مغتبطا هبا. وإما أن يكون في رتبة الأشياء الروحانية متعلقا بأحوالها العليا سعيدا هبا وهو مع ذلك يطالع الأمور البدنية معتبرا هبا ناظرا في علامات القدرة الإلهية ودلائل الحكمة البالغة مقتديا بها ناظما لها مفيضا للخيرات عليها سابقا لها نحو الأفضل، فالأفضل بحسب قبولها وعلى نحو استطاعتها. وأي أمرئ لم يحصل في إحدى هاتين المنزلتين فهو في رتبة الأنعام بل هو أضل."[18]

6 سؤال المرجعية الأخلاقية

انتشر سؤال يكرره بعض المسلمين والمؤمنين حول العالم، يوجهونه غالبا للعلمانيين واللادينيين، يقول: "ما هي مرجعيتك الأخلاقية؟". وهو سؤال استهجاني أساساً يفترض أن لا مرجعية أخلاقية خارج الدين، وأن كل مرجعية أخرى هي مرجعية "مادية" لا تصلح أن تقيم أساساً لمرجعية أخلاقية، مستندين لمقولة منسوبة لستيفن هوكنج (عالم الفيزياء الشهير) تقول: " الجنس البشري مجرد حثالة كيميائية على كوكب متوسط الحجم".

غالب من يطرحون السؤال يكونون من أشخاص بعيدين كل البعد عن دراسات علم الأخلاق وفلسفتها والبحث بها، بل حتى عما كتبه علماء المسلمين وفقهائهم. فهي حجة ظهرت في العقود الأخيرة مع انتشار المناظرات الدينية والإلحادية، والأسئلة الكبرى التي طرحها العلم حول الكون والإنسان، والتطورات الضخمة على مستوى القيم الأخلاقية وحقوق الإنسان، والصدام بين الحداثة بما تضمه من ديمقراطية وعلمانية وحقوق إنسان وبين الدين عموما، وبين الإسلام السياسي خصوصا. فكان السؤال من باب الإيقاع بالمقابل في فخ الإدانة الأخلاقية بالتعلق بظاهر الأمور وببعض الأفكار الانطباعية التي يتوارثها الناس.

الملاحظ أن هذه الطروحات لم تأت فقط من بعض صناع الرأي متواضعي العلم والمعرفة المسلمين والناشطين بهذا المجال، بل إنها تلقت دعما أيضا من عديد من الأسماء الكبيرة في فضاء النقاش الإسلامي المعاصر، ولعل أشهرهم كان الدكتور عبد الوهاب المسيري، وكثير من الدعاة الإسلاميين الآخرين المشهورين. الذين اعتنقوا عقيدة نظرية المؤامرة على الإسلام بشكل أو بآخر، أو على الأقل وضعوا نصب أعينهم أن هدم ما يقدمه النموذج الغربي بكل ما فيه هو ضرورة كبيرة لحماية الإسلام والمسلمين. وهم بذلك مارسوا الخدعة النفسية الأبسط ضمن ميكانيزمات الدفاع النفسي الأولية، أي تعليق كل الأخطاء على الآخر وتبرئة الذات.

لنحاول هنا الإجابة على هذا السؤال وفق عدة محاور، وبدون الدخول أيضا في تفاصيل علم وفلسفة الأخلاق وما يتصل بهم من علوم نفسية واجتماعية، لكن باحترام الأركان المؤسسة لهذه العلوم.

6.1 هل الدين هو المرجعية الأخلاقية الوحيدة؟

الجواب ببساطة: لا، ليس الدين، بأوسع مفاهيمه وتعريفاته، هو المرجعية الأخلاقية الوحيدة وفق غالبية الدراسات والتحليلات في علوم الأخلاق والفلسفة والنفس والاجتماع.

نعم، كل هذه العلوم تقرّ بوجود علاقة متداخلة ومتشابكة ما بين الدين والأخلاق، كذلك متشابكة مع الثقافة والقانون والعادات والتقاليد، وأيضا متفاعلة مع الحالة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعلمية للمجتمع. لكن لا يوجد ما يمكن القطع به من أن الدين كان سابقا على الأخلاق، وهنا أنصح بمراجعة الورقة المشار لها بالمراجع هنا[19].

هذا التداخل بين الأخلاق والدين، لا يقتضي أن الدين سابق على الدين. وهذا ما تؤكده كل المكتشفات الأثرية والأحفورية حول الإنسان القديم. فالدين بأبسط منظوماته تطور حديث دخل على البشرية عبر تاريخها الطويل بما أثبتته كافة الرسوم والاكتشافات حول الإنسان بالعصر البدائي وقبل الانتقال إلى

الزراعة وبدء التحضر. بل إن علم الآثار يخبرنا أن أقدم معبد ديني مكتشف هو Göbekli Tepe في جنوب شرق هضبة الأناضول ويعود تاريخ بنائه إلى الألفية العاشرة قبل الميلاد[20].

بالتالي لا يمكن للبشر الاستمرار حوالي 200 الف سنة قبل التعرف على الدين بدون أخلاق ناظمة لحركتها الجماعية للنجاة ضمن الظروف الطبيعية الصعبة وبدائية الأدوات التي امتلكتها. فمهما اختلفت نظريات الأخلاق في تفسير المرجعية الأخلاقية، لا يوجد من ينكر أن المجتمعات البدائية كانت مضطرة بدافع الاستمرار أن تحتكم لمنظومة من القيم والضوابط تضمن نجاتها.

طبعا قد يجيب البعض انطلاقا من النص الديني المقدس، وهنا الإسلامي والمسيحي واليهودي متقاربون جدا، الذي يقول ظاهره أن الإنسان بدأ مع آدم وحواء، ومعهم أودع الله الوعي بالدين والأخلاق.

بكل الأحوال هذه الإجابة هي إجابة دينية لا دليلا علميا عليها، وتتبع الإيمانيات الخاصة بكل دين، فلا تصلح كحجة علمية في هذا النوع من النقاش. ناهيك عن أن اختلاف الأديان الموجودة، بما فيها الابراهيمية، في تفسير البداية البشرية، واختلاف هذه الأديان داخليا فيما بين مفسري نصوصها المقدسة يؤكد أن هذه الحجة لا يمكن أن تستقيم حتى بقبول النص الديني. فهنا لا يمكننا وضع أفضلية لنص ديني فوق نص ديني آخر.

6.2 هل اشترط علماء المسلمين الدين أو الإيمان للأخلاق؟

لم يرد عن علماء المسلمين وفقهائهم ممن اشتغلوا في مبحث الأخلاق أن شرط الأخلاق هو الإيمان أو الدين بشكل واضح قاطع. كما أنهم لم يختصوا بمنح الأفضلية من حيث المقارنة الأخلاقية بين الإسلام وغيره من أديان ضمن مبحث واضح مركز.

هم ربطوا الأخلاق بالإسلام، والإسلام بالأخلاق، وهذا توجه طبيعي ومتوقع عند أي مؤمن يبحث في دينه بأصوله وفروعه. فكان يجمعون على أن المثال الأرقى أخلاقيا للمسلمين هو رسول الإسلام، الذي كان خُلقه القرآن. لكن مع ذلك هم يدركون أن هذه منزلة رفيعة لن يصل لها أحد من البشر، فهي مثال وقدوة وليست احتكارا للأخلاق.

6.3 مؤشرات تتعلق بالأخلاق

رغم أن البعض قد يجادل في التمييز ما بين الجريمة وما بين المنظومة الأخلاقية، باعتبار أن الجريمة ترتبط بشكل كبير بعدة ظروف غير المنظومة الأخلاقية، منها الحالة الاقتصادية والفروق الطبقية بين الأغنياء والفقراء، الحالة السياسية ونوعية السلطة الحاكمة شمولية أم ديمقراطية، وقوة تطبيق النظام العام من قبل الدولة، وعدالة المنظومة القانونية، والإعلام، والتعليم، وحتى الظروف المناخية؛ إلا أنها أيضا تُعتبر مؤشرا على مدى قوة المنظومة الأخلاقية في مواجهة ظروف المجتمع والدولة.

فلو قارننا معدلات الجريمة في دول العالم فمن الصعب ربط ارتفاع هذه المعدلات أو انخفاضها بدين ما، أو انتشار التدين في هذه المجتمعات كما يبين الشكل 6. بالواقع أن أقل الدول انتشارا للجريمة هي العديد من دول أوروبا الغربية بالإضافة لليابان ودول الخليج العربي (أقل من 30 جريمة لكل

100000 نسمة)، وهنا لا يوجد قاسم مشترك بينهم سوى المستوى المادي الجيد. دول الخليج ليست ديمقراطية ولا علمانية لكنها تملك مؤسسات دولة وأمن وقانون قوية جدا نسبيا.

في نفس الوقت نلاحظ أن الصين ذات الغالبية الملحدة بها معدل جريمة متوسط وأقل من العديد من الدول ذات الطابع المتدين سكانيا، حيث معدل الجريمة في الصين 40 لكل 100000 نسمة.

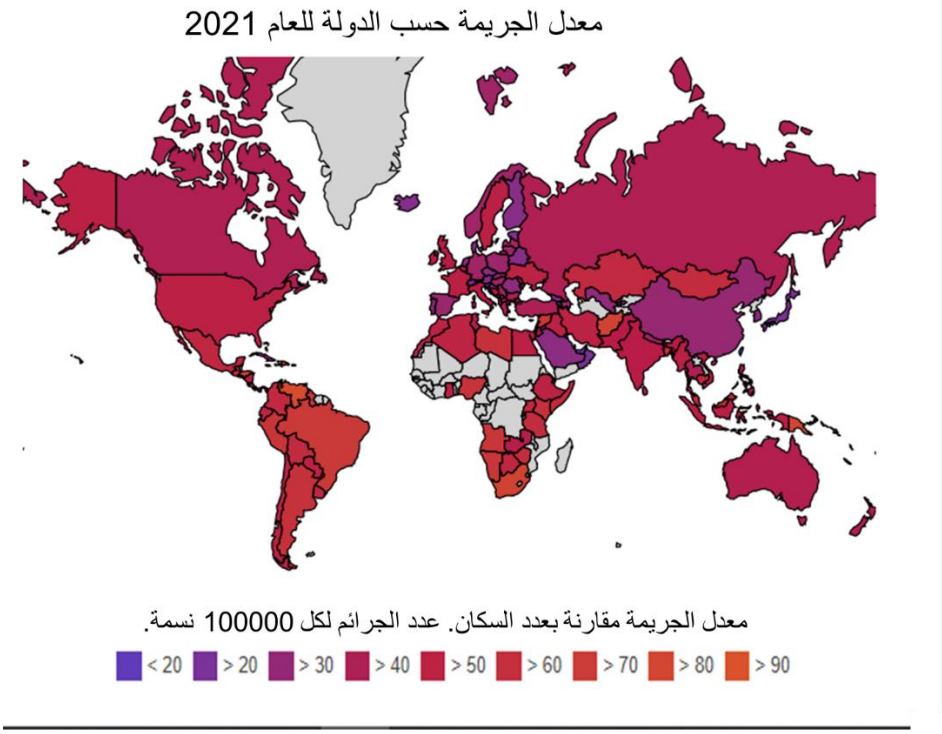

الشكل 6، معدلات الجريمة حسب الدولة للعام 2021[21]

بنفس الأسلوب لو نظرنا لمعدلات الفساد وفق مؤسسة الشفافية العالمية للعام 2020، فسنصل أيضا لنفس النتيجة حسبما هو مبين في الشكل 7.

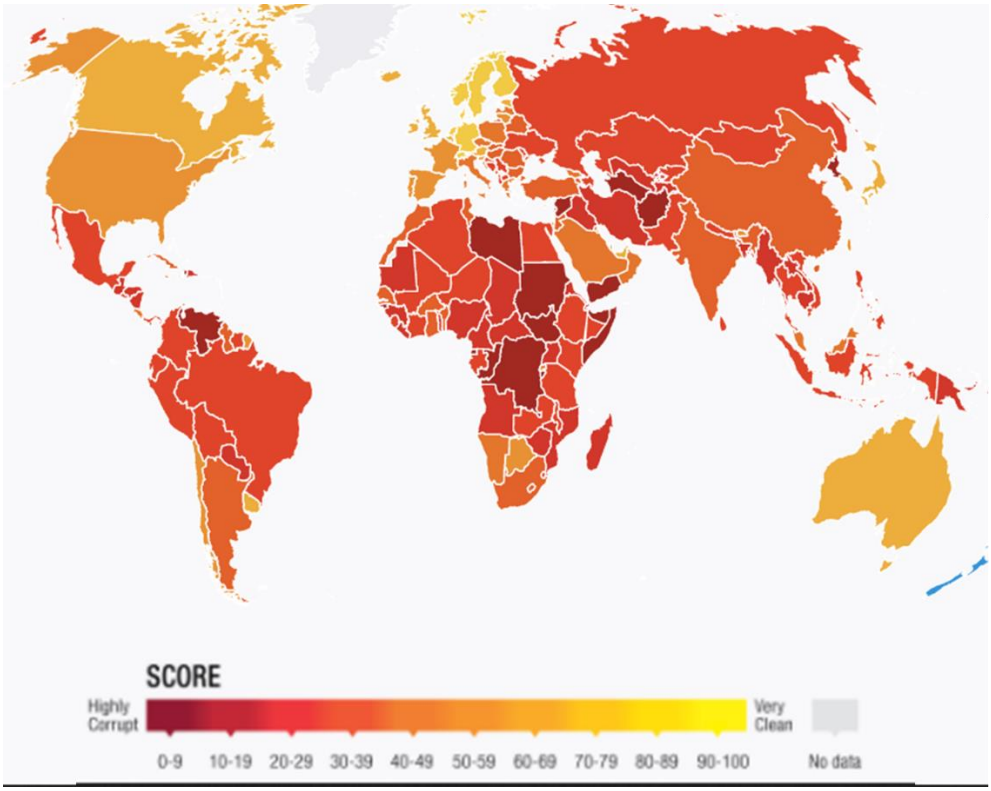

الشكل 7، مؤشر الفساد حسب الدولة للعام 2020. اللون الأصفر يشير لأقل الدول فسادا، ويتدرج إلى الأحمر الغامق أكثرها فسادا[22].

في كثير من المجادلات حول موضوع الأخلاق، يفضل المتدينون التدليل على العلاقات الجنسية والطعن بأخلاقيات الآخرين المتعلقة بالعلاقات الجنسية. لكن مع ذلك عند مقارنة معدل الاغتصاب الجنسي حول العالم فسنجد أيضا أن لا علاقة بين هذا المعدل وبين طبيعة الدولة من حيث التدين.

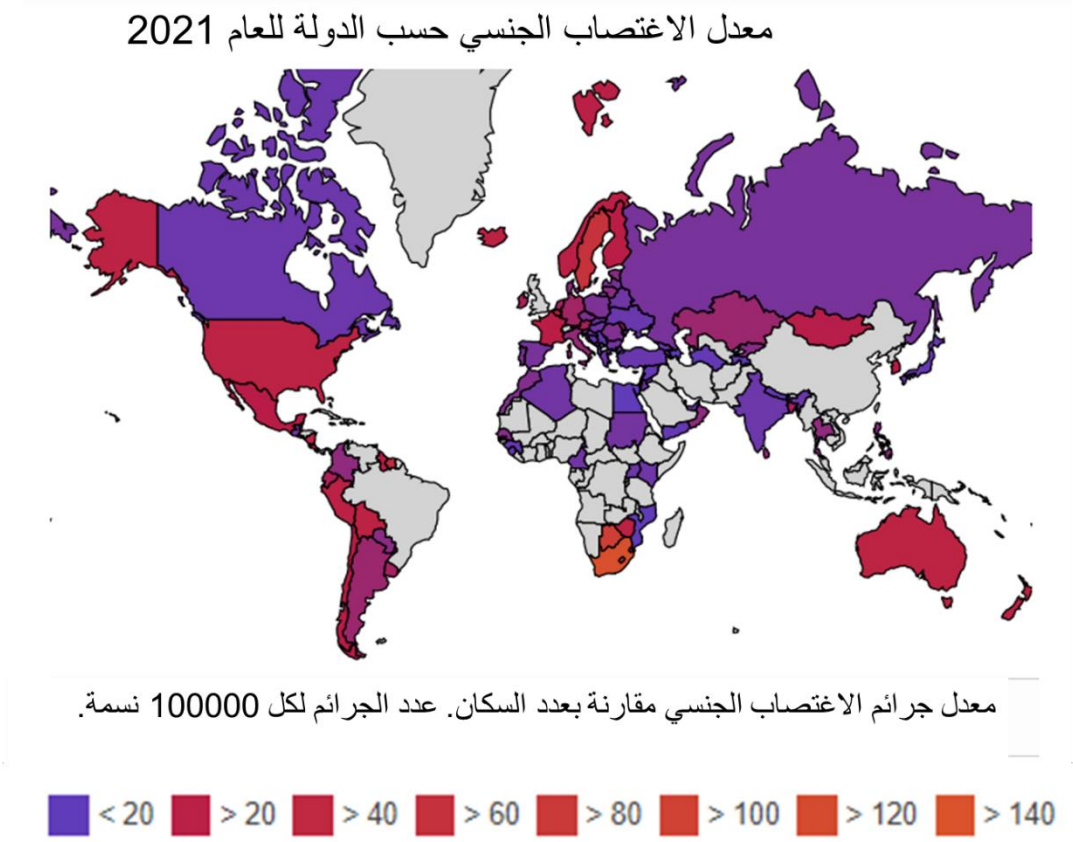

الشكل 8، معدل جرائم الاغتصاب حسب الدولة للعام 2021[23].

6.4 الجينات والأعصاب والسلوك البشري

تتزايد الأدلة العلمية على ارتباط بعضا من السلوكات البشرية بعوامل جينية وعصبية في الجسم. لا يقول المتخصصون أن السلوك الإنساني يعود بشكل كامل للبنية البيولوجية لجسمه، ودماغه بالتحديد، لكن لم يعد أيضا مقبولا القول إن السلوك الإنساني يتأثر فقط بالبيئة المحيطة. وفي هذا المجال نشأت العديد من العلوم الفرعية والحقول البحثية، التي ما زال بعضها يلاقي بعض الانتقادات مثل علم الوراثة السلوكي[24].

6.5 الأسئلة الأخلاقية الكبرى في العصر الحديث

غالبا ما يلجأ المتدينون بنقاش الدين والأخلاق، ضمن مسار نقد أو مهاجمة التيار اللاديني، إلى الحديث عن الانهيارات الأخلاقية كما يصفونها، والتي بالمحصلة تكون غالبا حسب تقديمهم تتمحور حول الحرية الجنسية، المثلية الجنسية، الإباحية وغيرها. ونادرا ما نسمعهم يتكلمون عن قلة المساعدات المقدمة للفقراء والجوعى حول العالم، أو عن معاناة اللاجئين والمطرودين من بلادهم، أو عن التهديدات البيئية التي تحيق بالكرة الأرضية.

لنفترض الآن أننا وجهنا واحدا من هذه الأسئلة الكبرى في عصرنا، والتي لم تكن محط انتباه كبير في العصور التاريخية السابقة، لمن يمثلون تيار احتكار المرجعية الأخلاقية في الدين:

- **السؤال الأول:** هل يتوجب أخلاقيا على الأجيال الحالية من البشر أن تتحمل تكاليف أعلى، وتقشفا أكثر في وسائل راحتها، في سبيل حماية الكرة الأرضية من التغير المناخي الذي سيؤدي خلال 100 سنة إلى كوارث طبيعية يتوقع أن تتصاعد لمستوى يؤدي لصعوبة الحياة على الأرض؟ أم يحق لهم الاختيار وإهمال ما يمكن أن يحصل بالمستقبل البعيد باعتبار أن الأجيال السابقة لم تضع أولوياتها حقيقة لتأمين عالم أفضل للأجيال الحالية؟
- **السؤال الثاني:** هل يتوجب أخلاقيا على الدول الغنية، والأفراد الأكثر غنى أن يتقاسموا ثرواتهم مع عشرات الملايين من الجوعى حول العالم، الذين يعانون من الجوع بسبب طبيعة النظام العالمي الاقتصادي المسيطر؟ أم أن لهم الخيار باعتبار أن البشرية كانت دائما مقسومة بين غني وفقير، والله سيعوّض الفقراء في الحياة الثانية؟
- **السؤال الثالث:** هل يتوجب أخلاقيا على الدول الغنية استقبال اللاجئين الهاربين من بلادهم بسبب الحروب أو الفقر أو الظلم، ومنحهم حصة من ثرواتها التي هي ملك شعوبها؟
- **السؤال الرابع:** هل التعليم الأساسي، والضمان الصحي، والمسكن والمآكل والمشرب هي حقوق واجبة أخلاقيا لكل إنسان؟ وبحال الإجابة بنعم هل يجب على البشرية تعديل اتجاهها الأخلاقي للوصول لهذه القيمة أخلاقيا لتأمين الأرضية المناسبة لتأمين وحماية هذه الحقوق؟
- **السؤال الخامس:** في حالة وباء مشابه لكورونا، هل يحق لقيادات الدول التضحية بحياة نسبة قليلة من سكانها للتخفيف من الأعباء الاقتصادية الكبيرة اللازمة لمواجهة هذه المرض، بهدف تأمين حياة أفضل لباقي السكان؟

هذه الأسئلة ومثلها كثير هي من أهم الأسئلة التي تواجه البشرية في القرن 21، ولا يوجد في أي من الأديان المعروفة حاليا من يستطيع الزعم أن يملك جوابا قاطعا شافيا على هذه الأسئلة أو بعضها وفقا لتعاليم الدين الأساسية ونصوصه المقدسة. بل إن كل من سيتصدى منهم للإجابة سيلجأ إلى أحد المدارس في علم الأخلاق لبناء المعادلة ما بين الخسارة والربح والصح والخطأ والإجابة عليها.

بكلمات أخرى، في الإسلام سيلجأ الشيوخ إلى استخدام الاجتهاد والقياس، وسيختلفون وربما يتناقضون. والأسس التي سيقيمون الاجتهاد عليها ستتقاطع مع أحد أو بعض المدارس في علم الأخلاق، والتي ليست بحاجة لدين ليحكم بها.

ليست مهمة الدين الإجابة على هذه الأسئلة ولا حتى غيرها. الدين يجيب على بعض الأسئلة الأخلاقية على المستوى الفردي وأحيانا المجتمعي، لكنه كدين لا يملك الأدوات الكافية لمواكبة التغيرات المتسارعة التي تسير عليها البشرية.

7 خطورة احتكار المرجعية الأخلاقية من قبل الدين

لقد أثبت التاريخ أن كل الأديان أداة مطواعة في يد القائمين عليها من رجال دين وكهنوت، سواء تقبل رجال الدين هذا التوصيف أم لم يتقبلوه. فعبر التاريخ الإسلامي مثلا لم يخلو ديوان أي حاكم مسلم، سواء خليفة أو أمير أو سلطان أو ملك، من شيوخ وفقهاء وقضاة يتماشون مع رغباته ويضعون الفتاوى التي تناسب أهوائه. ومن نافل القول التأكيد على أن كثيرا من هؤلاء الحكام لم يكونوا بسذاجة أو جنون طلب إلغاء الصلاة أو الصيام مثلا، أو إقامة تماثيل للعبادة، أو غيرها مما يتعارض بشكل واضح مع أسس الدين. كذلك حصل مع المسيحية واليهودية والبوذية والهندوسية عبر التاريخ.

خطورة تدخل الدين على أنه المرجعية الأعلى أو الوحيدة هو قدرة الدين بما يملك من قدسية عند متبعيه على أن يحول العمل الشرير إلى عمل خير.

فمثلا، يوم كانت الكنيسة الأوروبية في العصور الوسطى تعاقب الساحرات والهراطقة بالحرق أحياء، لم يكن يرى الناس وقتها أن هذا العمل شرير، بل هو خير لأن الكنيسة قالت أن الله يباركه وأراده. وكذا يوم تحركت جيوش أوروبا في نهاية القرن العاشر باتجاه الشرق الأوسط بحجة تحرير أرض ميلاد المسيح من الكفرة المسلمين.

وأيضا التاريخ الإسلامي مليء بمثل هذه المواقف. ففي كل حروب حكام المسلمين مع بعضهم البعض كان يوجد على الجهتين شيوخ وفقهاء يقررون أن هذه الحرب حرب خير وليس حرب شر. بدءا من حروب الفتنة الكبرى إلى يومنا هذا.

وأيضا حول فقهاء وشيوخ قتل المخالفين دينيا وفكريا إلى عمل خير وليس شرا، كما حصل عندما مال الخليفة العباسي للمعتزلة ثم مال ضدهم.

وفي عصرنا الحالي، حتى لو قال عديدون أن ما نسمعه ليس رأي الإسلام الصحيح، يبقى القول ببعض الفتاوى آتيا من الفقه الإسلامي وبأسانيد قوية. لا يقتصر الأمر على جرائم مارستها داعش وغيرها من فصائل جهادية إسلامية سنية وشيعية، بل يتعدى ذلك إلى مطالبة بعض الشيوخ الشعوب بالركون للحاكم الظالم حتى لو جلد ظهرها.

وفي المنحى الإسلامي هناك خمس مسائل كبرى ما زالت تمثل تحديا أخلاقيا للفقه والتشريع الإسلامي، ولم يصل معها الشيوخ والفقهاء لجواب أخلاقي يناسب العصر الحديث[25]:

- منع التواد والتراحم بين المسلم وغير المسلم. وعند السلفية اتجاه واضح لإظهار البغض بالله للمخالف.
- احتكار الخلاص والحقيقة كمسلمين، وهذا يناقض أخلاقية حق الاختلاف. رغم انها الموضوع عقدي لاهوتي إلا انه مسيس الصلة بالأخلاق الاجتماعية.

- مسألة الاسترقاق والسبي. الجهود الفقهية متعثرة باتجاه الاعتراف بأصالة المبدأ. فتوى الشيخ الجبري "السبي شرع الله من ينكره يكفر".
- الاحتساب، أو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر. مناقضة للقيم الديمقراطية الحديثة.
- التمييز ضد النساء.

8 هل إنكار وجود أو صلاحية المرجعية الأخلاقية عند الآخر سلوك أخلاقي؟

بالواقع إن السؤال الإنكاري بحد ذاته الذي يوجه كثير من الشيوخ والدعاة الإسلاميون هو بحد ذاته سؤال لا أخلاقي. لأنه يؤسس للتمييز بين البشر حسب عقائدهم، بما يناقض حقوق الإنسان وفق الشرعة الدولية، ويؤدي لزيادة الانشقاقات ضمن المجتمعات الواحدة وما بين الدول. فهو لا أخلاقي سواء من باب تحقيق السعادة وتخفيف الألم، أو من باب البقاء وحفظ النسل البشري.

9 اتهامات التيار اللاديني للأديان بهدم الأخلاق أو الإساءة إليها هو أيضا سلوك لا أخلاقي

الاتهامات التي يوجهها بعض التيار اللاديني للأديان عموما، وللمتدينين كلهم أوبعضهم، بأن الدين هو سبب كل المشاكل والكوارث والانتهاكات التي تحصل ببلادنا، أو أن الدين هو أحد المحركات الأساسية لأي شر يرونه أيضا يقع ضمن خانة السلوك غير الأخلاقي، لنفس الأسباب السابقة، ولا يخرج هذا السلوك كثيرا عن سلوك المتدينين الذين ينكرون أخلاقية اللاديني أو المخالف لهم بالدين.

10نحو ميثاق عالمي للأخلاق

العالم بحاجة لميثاق عالمي للأخلاق يحاول من خلاله التقريب بين الشعوب والثقافات والأديان والأفكار، بهدف التخفيف من أسباب استمرار النزاعات والحروب والمآسي التي يسببها البشر لبعضهم البعض.

هذا الميثاق يجب أن يقوم على حقين إنسانيين إضافيين لم يتم تضمنيهم في شرعة حقوق الإنسان الدولية:

إن الناس متساوون في مستوى رقيهم الأخلاقي وسطيا بكل المجتمعات البشرية وبين كل المجتمعات البشرية.

إن الناس متساوون في قدرتهم على الشعور بالحب والتضامن والتسامح والمودة.

ففي معارك القرن الجديد الإعلامية، وخاصة في فوضى منصات التواصل الاجتماعي، انتشرت مقولات وأفكار تجرد جماعات بشرية كاملة من القيم الأخلاقية اللازمة، أو حتى من مشاعر التضامن، بناء على انتماء هذه الجماعات إلى بلد أو قومية أو دين أو طائفة ما.

11خاتمة

تبدو هذه المعارك الإعلامية أنها مجرد ألاعيب على الانترنت، لكننا نلمس آثارها مع ظاهرة الردة الأصولية العالمية، التي تتظاهر عبر التطرف الديني، ومنه الإسلامي، والتمييز العرقي والقومي، بل وحتى التمييز الطبقي مع تزايد الفجوة بين الأغنياء والفقراء.

فيجب على الكثيرين أن يسألوا أنفسهم السؤال الأخلاقي أولا، عن أخلاقية سؤال الأخلاق قبل أن يوجهوه للآخرين باتهام مسبق يحمل جوابه ضمنه.

---

[1] مركز بيو للأبحاث – الولايات المتحدة الأمريكية، استطلاع بعنوان "الانقسام العالمي حول الله"، 2020
Pew research center, “The Global God Divide”, 2020
https://www.pewresearch.org/global/2020/07/20/the-global-god-divide/

[2] الموسوعة البريطانية، وقاموس أكسفورد

[3] موسوعة ستانفورد الفلسفية، تعريف الأخلاق، 17-04-2021
The Definition of Morality
https://plato.stanford.edu/entries/morality-definition/

[4] ورقة بحثية، ويل غيرفيس، "كل شيء مسموح؟ يحكم الناس حدسيًا على الملحد كممثل للاأخلاقية"، جامعة كنتاكي
Will M. Gervais, 2014 Apr 9. doi: 10.1371/journal.pone.0092302, “Everything Is Permitted? People Intuitively Judge Immorality as Representative of Atheists”
https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC3981659/

[5] جامعة إلينوس، شيكاغو، "المعتقدات الأخلاقية والدينية: هل هم نفس الأشياء أو أشياء مختلفة؟"، 2018
Linda J. Skitka, Brittany E. Hanson, Anthony N. Washburn, Allison B. Mueller, 2018, Moral and religious convictions: Are they the same or different things?

[6] سورة القلم الآية 4

[7] رواه أحمد في مسنده

[8] أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، 932م-1032م

[9] أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، 974م-1058م

[10] أبو حامد محمد الغزّالي، 1058م-1111م

[11] أبو جعفر محمد بن محمد بن الحسن الطوسي، 1201م-1274م

[12] التهانوي، محمد علي. 1996. كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم. مكتبة لبنان. 762-763

[13] الغزالي، أبو حامد. 2004. إحياء علوم الدين. بيروت: دار ابن حزم.

[14] الطوسي، نصر الدين. 2008. أخلاق ناصري. ترجمة د. محمد صادق فضل الله. دار الهادي. 101-102

[15] ابن قيم الجوزية. مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

[16] مسكويه. 1908. تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق. المكتبة الحسينية-مصر.
ورد في الكتاب: "الخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية. وهذه الحال تنقسم إلى قسمين. منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب" "ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدرب وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم يستمر عليه أولا فأولا حتى يصير ملكة وخلقا" "ولهذا اختلف القدماء في الخلق فقال بعضهم الخلق خاص بالنفس غير الناطقة وقال بعضهم قد يكون للنفس الناطقة فيه حظ. ثم اختلف الناس أيضا اختلافا ثانيا فقال بعضهم من كان له خلق طبيعي لم ينتقل عنه. وقال آخرون ليس شيء من الأخلاق طبيعيا للإنسان ولا نقول أنه غير طبيعي. وذلك أنا مطبوعون على قبول الخلق بل ننتقل بالتأديب والمواعظ إما سريعا أو بطيئاً وهذا الرأي الأخير هو الذي نختاره لأنا نشاهده عيانا ولإن الرأي الأول يؤدي إلى إبطال قوة التمييز والعقل وإلى رفض السياسات كلها وترك الناس همجا مهملين إلى ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم وهذا ظاهر الشناعة جدا."

[17] المرجع 13

[18] المرجع 16

[19] ريان مكاي، هارفي وايتهاوس، 2015، "الدين والأخلاق"
Ryan McKay, Harvey Whitehouse, Psychological Bulletin, 2015, Vol. 141, No. 2, 447–473, "Religion and Morality"

[20] مجموعة بحوث تاريخية حول الثقافة والفن ما بين نهر الدانوب والفرات (ألماني).
In Schmidt, Klaus (ed.). Erste Tempel – Frühe Siedlungen. 12000 Jahre Kunst und Kultur, Ausgrabungen und Forschungen zwischen Donau und Euphrat (in German). Oldenburg: Florian Isensee. ISBN 978-3899955637.

[21] مؤسسة تقييم سكان العالم، الولايات المتحدة الأمريكية
World Population Review
https://worldpopulationreview.com/country-rankings/crime-rate-by-country

[22] مؤسسة الشفافية العالمية، معطيات 2020
Transparency International
https://www.transparency.org/en/cpi/2020/index/nzl

[23] المرجع 21
https://worldpopulationreview.com/en/country-rankings/rape-statistics-by-country

[24] علم الوراثة السلوكي، مجلة نيتشَر
Behavioral Genomics
https://www.nature.com/scitable/topicpage/behavioral-genomics-29093/

[25] محمد حبش -سؤال الأخلاق بين مقاربات النظام الأخلاقي في الإسلام والقيم الأخلاقية الديمقراطية، "المؤتمر السنوي السادس للعلوم الاجتماعية والإنسانية"، 18-20/3/2017
https://www.youtube.com/watch?v=QHXFzYpwJYY